وبعد الهزيمة او النكسة ، والادب الذي « يؤرخ » للازمة بعد انتهائها بوقت طويل او قصير »(٤).

ان للشعر فعلا حضاريا ، شأنه شأن الموسيقى ، وهذا الراي الذي قد يراه البعض نزعة لتسام مفتعل ومغلق وبعيد عن الارض ، سيظل وحده ، دون ريب ، محك الاعمال العظيمة . ان شموخ العمل الشعري مسألة تاريخية بالضرورة ، فيه يتفجر الحاضر نحو المستقبل ، وفيه يكمن الماضي كمون البذرة بالشجرة .

ان هذا الفعل الحضاري للشعر هو فعل ثوري ، لانه لا يطمس الحقائق بانفعال وحماس ذي قماشة جاهزة ، ولا يساهم باكذوبة الاناشيد المتوترة التي اتقنتها الاذاعات العربية . بل هو يمتد بأفق داخلي في « ذات » الامة ، مجموعة . فنحن لا نجهل مئات الابواق الشعرية التي نفخت اوداج الواقع المترهل بعد حزيران ، شأنها شأن الصحف العربية حين وضعت الفدائي والعمل الفدائي في دائرة لا حدود لسعتها . ونحن لا نجهل ، بالتالي ، نوبات الضمير التي بدأت تجترها ، وهي تتلمس حطام حبها المخرب . انها ببساطة لم تلتفت الى مهمة الشعر التفاتة مسؤولة، فلقد شاءت — بظرف مساعد — ان تجعل تحت اسم « الشعر الثوري » كل حديث عن الفدائيين والشهداء وفلسطين . وما عداه مجرد هلوسة خارجيين لا حنجرة لهم . ولقد ساهم النقاد — وما اسوأ النقد في العربية وما اقل نقاده ! — بتثبيت هذا المفهوم . الا اذا استثنينا بعض الارتدادات المتأخرة .

يقول يوسف الخطيب في مقدمته الهامة لكتابه « ديوان الارض المحتلة » والتي تعتبر في مقدمة المراجع العربية لشعر المقاومة الفلسطينية « ان مواضيع استنباط الأفكار قائم في حقل الفلسفة .. في حقل السياسة .. في حقل الطبيعة .. في حقل الاجتماع والاقتصاد .. وليس الشعر ، بل ليس الادب عامة ، الا قوى الرعد والبرق والشمس ، التي تمنح الحياة والاشراق لهذه الحقول جميعا .. لعل ان يفلحها السادة المفكرون »(٥). ان فاعلية الشعر الثوري ليست هي فاعلية البندقية الثورية . انها اشارة لاولئك الذين يطالبون بان تكون الكلمة كالرصاصة . ان فاعليتهما مختلفة نوعيا . اذ ان المدى بين الرصاصة والهدف لا يمكن ان يوازي ، مهما اختلفت المقاييس ، ذلك المدى الذي يفصل الشعر عن هدفه . ان المشاركة الفاعلة والحقيقية لن تتمكن من النتائج الا بمعرفة مهماتها وحدودها .

لعل اقرب المسائل لهذه النزعة المجحفة تلك التي تجد في موضوع الساعة محكا لا محيد عنه لقيمة الشعر ولثوريته . ولقد اشار الشاعر محمود درويش الى هذه الظاهرة البائسة بقوله « ان الخطأ يكمن في مجرد اجراء عملية المفاضلة ، فليس من الضروري ولا ينبغي ان تكون القضية الفلسطينية منذ نشأتها حتى حزيران هي المحور الاوحد الذي يدور حوله الادب العربي المعاصر ، والا فاننا نصاب بأقصى ضيق النظر ، ونعتبر ان كل التطورات السياسية والاجتماعية في العالم العربي ، منذ ما يزيد من عشرين سنة غير جديرة بتعامل الاديب معها ، او نعتبرها ضربا من ضروب الكماليات لمجرد عدم التصاقها المباشر بالقضية الفلسطينية ، ولعلنا لا نختلف على اعتبار هذا الموقف تنكرا لمسيرة التاريخ العربي . ومن هنا لا يمكن تقويم اعمال الشعراء العرب بميزان مدى تفاعلهم مع قضية فلسطين ، كما ان احدا لم يجر مثل هذه المحاسبة مع الشعراء العرب في مدى اشادتهم بالثورة الجزائرية مثلا او التحولات الاجتماعية العميقة في الجمهورية العربية المتحدة ... »(٦).

حتى هذه الاشارة التي تبدو للوهلة الاولى حاسمة،لا تفطن الى مهمة الشعر الاساسية، فدرويش هنا انما يوسع رقعة الاهتمامات من قضية محددة واحدة الى قضايا محددة